جهود الخلافة العباسية
في عمارة الحرمين الشريفين ومشاعر الحج
في الحجاز (١٣٢-٦٥٦هـ)

د. محمد بن عبدالله القدحات
قسم التاريخ - كلية التربية المطورة - حفر الباطن

ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة على الحجاز لا ينازعهم فيه منازع حتى أقام الفاطميون دولتهم في أفريقيا(١)، وأخذوا يعملون على توسيع رقعتها على حساب الخلافة العباسية، وكانت البداية استيلاءهم على مصر والشام(٢)، فلما تم لهم فتح هذه البلاد، وأصبحت القاهرة مقر خلافتهم تطلعوا إلى بسط نفوذهم على الأراضي المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة(٣)؛ ليكسبوا خلافتهم قوة شرعية أمام العالم الإسلامي، ويضعفوا من شأن الخلافة العباسية في نفوس المسلمين.

---

(١) كانت بداية تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب عام ٢٩٦هـ على يد عبيدالله المهدي. للتفاصيل انظر: حسن إبراهيم حسن وطه شرف، عبيدالله المهدي إمام الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، القاهرة، ١٩٤٧م، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة: (د. ن)، ١٩٥٩م، محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية، القاهرة: دار الفكر العربي (د. ت). فهذه الكتب ترشد بدورها إلى المصادر الأولية التي تناولت قيام الدولة الفاطمية في المغرب.

(٢) استطاع الفاطميون السيطرة الكاملة على مصر عام (٣٥٨هـ). حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ص ٢٤-٨٥، سرور، الدولة الفاطمية، ص ٦٤-٦٦.

(٣) محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ط٤، القاهرة: (د. ن)، ١٩٦٤م، ص١٤، عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الدولة العباسية، القاهرة: (د. ن)، ١٩٧٦م، ص١٠٨-١٠٩.

لم يدر بخلد العباسيين بعد أن تقلدوا الخلافة أن الاحتفاظ بالسيادة على مكة والمدينة سيكون له أثر في وثوق رعاياهم من المسلمين بأحقيتهم بالخلافة، فلما طمع الفاطميون بالسيطرة على هاتين المدينتين، ظهرت من ثنايا الصراع فكرة جديدة تتضمن أن أمير المؤمنين هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين (المكي والمدني)، وأن نفوذ خلافته لا تكتمل عناصرها في نظر المسلمين ما لم تؤيده الخطبة له بالحرمين(٤).

فالحجاز مهبط الوحي والرسالة الإسلامية، ومركز الحج الذي يتوافد إليه المسلمون في كل عام؛ لأداء أحد أركان الإسلام. إضافة إلى أهميته الجغرافية كحلقة وصل بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها، وبلاد الشام ومصر، حيث تمر القوافل التجارية من خلال طرقه(٥).

وكان العلويون بهذا النزاع الخصم الثالث الذي يأتي أخيراً، فيفوز بالغنيمة، فاستقل أمراء الأشراف من بني الحسن بمكة، كما استقل الأشراف من بني الحسين بالمدينة(٦). وأصبح هؤلاء الأمراء سادة الحرمين(٧) مستغلين التنافس بين الخلافتين؛ لتعزيز مركزهم في

---

(٤) محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد العراق والشام في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٧م، ص ١٤.

(٥) عبدالقادر بن محمد الجزيري (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م)، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ، ص٥٦٧.

(٦) تجدر الإشارة إلى أن الحجاز منذ القرن الرابع الهجري أصبحت ولاية شبه مستقلة من الناحية العملية عن الدولة العباسية، وتقتصر العلاقة على إعلان أمراء مكة والمدينة الخطبة لأي من المتنافسين: العباسيين والفاطميين. ومنذ ذلك التاريخ تعاقب على حكم مكة ثلاث أسر، هم: الأشراف الموسويون، ثم أسرة الهواشم، ثم بنو قتادة. أما المدينة فقد تولتها أسرة واحدة من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، التي عرفت فيما بعد بأسرة بني مهنا. أحمد بن علي بن عنبة (ت٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م)، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، عمان: صورة المخطوط نشرتها وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ص١٠٨-١١٩، سليمان خرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي على الحجاز، الأردن، إربد: مطبوعات جامعة اليرموك، ١٩٩٩م، ص١٣-١٤.

(٧) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م، ج٢، ص٥-٦.

شرافة الحجاز. لذا كانوا لا يترددون في الخطبة لأي منهما بحسب ما يقدمه من أموال وأعطيات(٨).

بدأ التنافس المعلن بين العباسيين والفاطميين سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م)(٩) بعد أن نجح الفاطميون في مد نفوذهم إلى إقليم الحجاز، حيث سارع شريف مكة جعفر بن محمد بن الحسن بالخطبة باسم الخليفة المعز لدين الله، معلناً تبعية بلاده للخلافة الفاطمية(١٠). كما أقيمت في العام التالي الخطبة للمعز بالمدينة المنورة، وحذف اسم الخليفة العباسي المطيع لله من الخطبة(١١). ومقابل ذلك بعث المعز الفاطمي إلى شريف مكة بتقليده الحرمين وأعمالهما، وأرسل إليه عشرين حملاً من المال(١٢).

استمرت الخطبة بعد ذلك للفاطميين في مكة والمدينة لمدة قرن من الزمان، التزم الفاطميون خلالها بدفع المستحقات المالية المترتبة عليهم تجاه أمراء الحرمين الشريفين(١٣).

ورغم منافسة العباسيين الضعيفة للفاطميين، وحرصهم الشديد على أن تكون لهم السيادة على الحجاز، إلا أنهم فشلوا في ذلك؛ بسبب ضعف مركزهم السياسي، وتغلب العناصر الأجنبية على السلطة.

---

(٨) خرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي، ص٣٥.

(٩) بدأ الاهتمام بالحجاز من قبل الفاطميين سنة ٣٤٨هـ عندما تدخل المعز لدين الله لحل النزاع الذي وقع بين بني الحسن وبني جعفر، حيث أنفذ لهم سراً مالاً ورجالاً سعوا بالصلح بينهما، وقام رسل الخليفة بأداء دية القتلى من بني الحسن؛ مما كان له أطيب الأثر في نفوسهم. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨م، ج٢، ص ١٤٥-١٤٦.

(١٠) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٠١.

(١١) أبو الحسن علي بن الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر، ١٩٦٦م، ج٧، ص٣٠-٣١.

(١٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٢٥، سرور، النفوذ الفاطمي، ص١٥.

(١٣) تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي (٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ط١، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٧٦م، ج١، ص٤٤١، محمد المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م، ص٢١٠.

ومع منتصف القرن الخامس الهجري ظهرت قوة سياسية عسكرية جديدة في المشرق الإسلامي، ونقصد بها السلاجقة(١٤) الذين استطاعوا تأسيس دولة مترامية الأطراف في المشرق، شملت إقليم بلاد ما وراء النهر(١٥) وطبرستان(١٦). وعلى الرغم مما كانت تتمتع به من نفوذ إلا أنها كانت بحاجة إلى دعم معنوي يقوي نفوذها، ويسبغ عليها الشرعية، ونقصد بذلك الاعتراف الرسمي من قبل الخليفة العباسي ببغداد.

كان المسلمون السنة في العراق وغيره من الأقاليم ينظرون إلى السلاجقة (السنة) نظرة متفائلة، وأنهم حماة المذهب، بعد الذي تعرضوا له على أيدي البويهيين ببغداد(١٧)، والفاطميين الشيعة،

---

(١٤) للمزيد عن قيام الدولة السلجوقية وتوسعها، انظر: صدر الدين علي بن نصر الحسيني (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، بيروت: دار اقرأ للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م، المؤلف نفسه، العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة عبدالنعيم حسنين وحسين أمين، بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٩م، عبدالنعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، تمارا رايس، السلاجقة، تعريب لطفي الخولي، بغداد، ١٩٦٨م، محمد مسفر الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م، دائرة المعارف الإسلامية: مادة سلاجقة.

(١٥) يقصد بها: بلاد ما وراء نهر جيحون. شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٠م، ج٥، ص٤٥.

(١٦) مسمى يشمل بلادًا كثيرة من بلاد المشرق، منها دهستان وجرجان وآمل. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٣.

(١٧) استولى بنو بويه على السلطة ببغداد عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) بعد حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية، وكان البويهيون شيعة على المذهب الزيدي، وبعد أن رسخوا وجودهم في بغداد، نجدهم يقربون الشيعة، ويولونهم المناصب، بل قاموا بإحياء بعض الأعياد الخاصة بالشيعة كيوم عاشوراء. للمزيد، انظر: أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، الملل والنحل، تحقيق أمير مهنا وعلي فاعور، ط١، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨م، ص١٨٠، أحمد محمد حلمي، الخلافة والدولة في العصر العباسي، ط٢، القاهرة: مكتبة الشباب، ١٩٧٢م، ص ٨٠، حسن منينمة، تاريخ الدولة البويهية، ط١، بيروت: الدار الجامعية، ١٩٨٧م، Gibb, Government and Islam under the earl abbasid, Paris 1961. p.8, p.126.

الذين استغلوا ضعف الخلافة العباسية، فمدوا نفوذهم إلى بلاد الشام والعراق أيضاً(١٨).

كان السلاجقة قادرين على دخول بغداد، لكنهم حرصوا على أن يكون دخولهم بدعوة من الخليفة العباسي حتى لا يظهر دخولهم على أنه اجتياح أو احتلال. ونتيجة للظروف الصعبة التي كانت تعيشها الخلافة العباسية اضطر الخليفة القائم بأمر الله إلى الاستعانة بالسلاجقة بزعامة طغرلبك لإنقاذه من محنته(١٩).

وعندما قرر طغرلبك دخول بغداد عام (٤٤٧هـ/ ١٠٨٤م) علل أسباب قدومه بأنها لا تتعدى تقديم الولاء والطاعة للخليفة، ومساعدته على إقامة موسم الحج، وتأمين طريقه، ثم التوجه إلى مصر؛ لإعادة الخطبة للخليفة العباسي على منابرها(٢٠).

وكان تدهور أحوال الدولة الفاطمية في منتصف القرن الخامس الهجري عاملاً مهماً أسهم في تشجيع السلاجقة على إكمال مشروعهم التوسعي، وضم الحجاز إلى مملكتهم، فالدولة التي كانت ترعى الحرمين - الدولة الفاطمية - تعاني من الأزمات الاقتصادية المتعاقبة بدءًا من سنة (٤٤٤هـ/ ١٠٨١م)، حيث عم القحط، وانقطع فيضان النيل؛ فقل الإنتاج الزراعي، وانتشرت المجاعات والأوبئة(٢١). وقد استمرت هذه الأزمة سبع سنين (٤٤٦ - ٤٥٤هـ/ ١٠٥٤ - ١٠٦٢م)(٢٢).

---

(١٨) سرور، الدولة الفاطمية، ص٢٧٤، ص ٣١١.

(١٩) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عطا ومصطفى عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية (د.ت)، ج١٥، ص٣٤٨.

(٢٠) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٨، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧١.

(٢١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٧٣.

(٢٢) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٠م، ص٢٣-٢٤، خرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي، ص ٣٠-٣١.

وقد انعكس هذا سلباً على أحوال الدولة الفاطمية في مصر والخارج، وخاصة الحجاز، تمثل بعجزها عن الإيفاء بالتزاماتها المالية تجاه أشراف الحجاز الذين كانوا يلحون في المطالبة برسومهم، وأعطياتهم التي اعتادوا على تلقيها من الدولة الفاطمية(٢٣).

استغل أشراف الحجاز هذه الظروف، فسعوا في إقامة علاقات ودية مع السلاجقة، معتمدين على فكرة ترسخت مع الأيام تتمثل في استعدادهم لتقديم الولاء والطاعة لمن يقدم الأموال والخلع من القوى المتنافسة لبسط سيطرتها على الحجاز. بعث شريف مكة محمد بن جعفر إلى السلطان ألب أرسلان سنة (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م) يخبره بإقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله وللسلطان السلجوقي، وإسقاط اسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله من الخطبة، وترك الآذان بـ"حي على خير العمل"(٢٤). فبعث إليه السلطان بثلاثين ألف دينار وخلع، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار، ووعد أنه إذا قام أمير المدينة بحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة، وإقامتها للخليفة العباسي، فسوف يمنحه عشرين ألفاً، ويجري له كل سنة خمسة آلاف دينار(٢٥). وقد شجع هذا العرض أمير مكة على الزحف إلى المدينة المنورة، وأخرج منها بني الحسين. وبذلك جمع بين إمارتي الحرمين، ودانت بلاد الحجاز مرة أخرى للعباسيين(٢٦).

ويلحظ خلال الفترة (٤٦٢-٥٥٠هـ/ ١٠٦٩-١١٥٥م) تذبذب ولاء أمراء الحجاز في ولائهم، فتارة يخطبون باسم العباسيين، وتارة

---

(٢٣) تقي الدين أحمد الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر تدمري، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م، ج٢، ص٣١١.

(٢٤) محمد بن عمر فهد (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٧٣، خرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي، ص٣٩.

(٢٥) الجزيري، درر الفوائد، ص٢٥٥.

(٢٦) الجزيري، درر الفوائد، ص٢٥٥.

أخرى باسم الفاطميين، آخذين بعين الاهتمام قوة كل منهما، ومدى التزامه بدفع أعطياتهم(٢٧).

وكان سقوط الخلافة الفاطمية عام (٥٦٧هـ/ ١٢٠٠م)(٢٨) نقطة النهاية، فلم يعد أمامهم إلا إعلان التبعية للخليفة العباسي ببغداد، خاصة إذا علمنا أن العباسيين في الفترة المتأخرة - نتيجة للظروف السياسية التي أصبحوا يعيشونها - لم تتعد مطامحهم بالنسبة للحجاز التبعية الاسمية، تاركين شؤون الحكم والإدارة لأمرائها من العلويين.

ويستخلص من كل ما سبق أن أمراء الحجاز آثروا مصالحهم الخاصة على مصلحة البلاد التي يتولون الإمارة عليها، فاستغلوا التنافس بين العباسيين والفاطميين لإشباع مطامعهم، وصاروا يقيمون الخطبة للخلفاء الذين يواصلون إمدادهم بالأموال، ولا يعنون بإدخال ضروب الإصلاح في بلادهم، مما أدى إلى إضعاف شأنها وتأخيرها مادياً ومعنوياً، حتى إن المقدسي لما زار بلاد الحجاز في القرن الرابع الهجري لحظ قلة عدد سكانها، وقدرهم بألفين(٢٩).

وبعد هذه التوطئة، نتناول في الصفحات الآتية الجهود التي بذلتها الخلافة العباسية في رعاية الحرمين الشريفين، والمشاعر المقدسة في الحجاز.

---

(٢٧) للاطلاع على تفاصيل هذه المرحلة من تاريخ الحجاز وعلاقاتها مع الدولتين، انظر: أحمد السباعي، تأريخ مكة، مكة المكرمة: دار مكة للطباعة، ١٣٩٩هـ، ص١٧٧ وما بعدها، عائشة عبدالله باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، مكة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ، ص٢٤ - ٣٣.

(٢٨) عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طلميات، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣م، ص١٥٦.

(٢٩) أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم، طبعة دي غويه، ليدن، ١٩٠٦م، ص١٠٣.

عمارة المسجد الحرام

تعاقبت جهود الخلفاء العباسيين على عمارة المسجد الحرام، منهم من زاد في مساحته، ومنهم من بذل الأموال في عمارته وإصلاحه. وكانت أول عمارة للعباسيين تمت في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور.

كان المنصور قد خرج عام (١٣٦هـ/ ٧٥٣م) أميراً لقافلة الحاج، وعندما وصل إلى مكة لفت انتباهه صغر مساحة المسجد الحرام، مع تزايد أعداد الحجاج في كل عام(٣٠). ويبدو أنه قرر العزم على نقل ما شاهده ورغبته في التوسعة إلى الخليفة أبي العباس السفاح، لكن نعي أخيه السفاح جاءه قبل أن يصل بغداد مقروناً بالبيعة له بالخلافة(٣١). فكان أول عمل قام به هو إصدار أوامره بتوسعة المسجد الحرام، وأوكل هذه المهمة إلى عامله على مكة زياد بن عبيدالله الحارثي. وقد بدأ العمل في التوسعة في العام التالي لخلافته (١٣٧هـ/ ٧٥٤م)، فقام زياد الحارثي بشراء الدور الواقعة شمالي المسجد وغربه وهدمها، ثم ضمها إلى مساحة المسجد(٣٢).

كانت الزيادة من الجهتين: الشمالية الشرقية من المسجد الذي يلي دار الندوة إلى أن ينتهي إلى منارة باب العمرة، والجانب الغربي من المسجد. ولم يزد من الجهة الجنوبية؛ لاتصالها بمجرى سيل وادي إبراهيم، ولصعوبة البناء بها. وبنى في هذه التوسعة أول منارة في تاريخ المسجد الحرام. كما عمل المنصور رواقاً دائرياً في صحن المسجد

---

(٣٠) علي بن تاج الدين السنجاري (ت ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م)، منائح الكرام في أخبار مكة والبيت الحرام وولاة الحرم، ط١، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ، ج٢، ص٩٠.

(٣١) محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار سويدان، ج٧، ص٤٧١.

(٣٢) أبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن دهيش، ط٣، بيروت: دار خضر، ١٤١٩هـ، ج٢، ص١٢٦٢.

بأساطين من الرخام، أقيمت حول المطاف، وزخرفت بالفسيفساء وماء الذهب، وزينت السقوف بأنواع من الزخرفة الإسلامية(٣٣).

وقام المنصور بكسوة جدران المسجد بالرخام من الداخل والخارج وبارتفاع الجدار نفسه(٣٤). وهذه أول مرة تتم فيها تغطية جدران المسجد الحرام بكامله بالرخام؛ لوقايتها من السيول(٣٥). وألبس حجر إسماعيل بالرخام من داخله وخارجه(٣٦)، وأمر المنصور أيضاً بتظليل الصحن أيام الصيف بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب؛ لتقي المصلين حرارة الشمس(٣٧).

وعلى ضوء هذه الزيادة أصبحت مساحة المسجد الحرام تقدر بحوالي (١٥٤٤٠م٢)، بزيادة قدرها (٤٧٠٠م٢)، وبذلك بلغت الزيادة ضعف المساحة السابقة(٣٨). وقد استمرت أعمال التوسعة ثلاثة أعوام (١٣٧-١٤٠هـ/ ٧٥٤-٧٥٧م)(٣٩).

وفي العام الذي انتهت فيه التوسعة حج الخليفة المنصور، فشاهد التوسعة، ولفت انتباهه بروز حجارة الحِجر(٤٠)، فأمر عامله على مكة

---

(٣٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ١٧٢-١٧٤، أبو الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، أخبار مكة، تحقيق رشيد ملحس، ط٣، مكة: دار الثقافة، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص٥٨، عبداللطيف بن دهيش، عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي، الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ، ص٦٠.

(٣٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٥٨، حسين عبدالله باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط٤، جدة: دار تهامة للنشر، ١٤٠٥هـ، ص٢٥.

(٣٥) ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٠.

(٣٦) الأزرقي، تاريخ مكة، ج٢، ص٥٨.

(٣٧) محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، الرحلة، كتب حواشيها طلال حرب، بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت)، ص١٣٩.

(٣٨) محمد بن مساعد آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي الشريف من العصر النبوي حتى العهد السعودي، ط١، مكة: دار الصفا، ١٤١٦هـ، ص٦١.

(٣٩) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٥٨.

(٤٠) يقصد به حجر إسماعيل عليه السلام.

زياد الحارثي بتغطيتها بالرخام ليلاً، حتى إذا أصبح لا يراها إلا مغطاة، وقد فعل زياد ما أمره به الخليفة على سراج القناديل قبل أن يصبح الصباح(٤١). وقد خلد المنصور عمله بنقش يحمل اسمه فوق باب بني جمح(٤٢).

وحظي المسجد الحرام بعناية فائقة في عهد الخليفة المهدي، فشهد زيادتين: الأولى بعد توليه الخلافة بعام (١٦٠هـ/ ٧٧٦م)؛ حيث حج ورأى ضيق مساحة المسجد ومعاناة الحجاج من الزحام، فأمر بتوسعته، وأوكل هذه المهمة إلى قاضي مكة محمد بن عبدالرحمن الأوقصي المخزومي، وكانت أول خطوة للتوسعة شراء الأراضي والدور المحيطة بالمسجد وإزالتها، وكان ثمن كل ذراع دخل في المسجد ٢٥ ديناراً، وخمسة عشر ديناراً مما دخل في الوادي. وشملت التوسعة الجهتين الشمالية والجنوبية(٤٣).

وأمر الخليفة المهدي بنقل أساطين الرخام من الشام ومصر إلى ميناء جدة، ثم نقلت على عربات إلى مكة(٤٤). أما الأروقة فقد عملها على أساطين الرخام، وسقفت بخشب الساج(٤٥). وقد انتهت أعمال التوسعة الأولى عام (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)(٤٦)، وبلغت حوالي (٧٩٥٠م٢)، فصارت مساحة المسجد (٢٣٣٩٠م٢)(٤٧).

---

(٤١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٢ -٧٣، إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ، ج١، ص٢٣٧.

(٤٢) انظر نص النقش: باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٦.

(٤٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٤، رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٩.

(٤٤) أبو البقاء محمد بن أحمد بن محمد بن الضياء المكي (ت٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم الأزهري وأيمن نصر الأزهري، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص١٥٣، السنجاري، منائح الكرام، ج٢، ص١١٠، السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٥٨.

(٤٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٦.

(٤٦) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٦٠، باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٠.

(٤٧) آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي، ص٢٩.

وفي العام الذي انتهت به أعمال التوسعة قدم الخليفة المهدي إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج، ومشاهدة أعمال التوسعة. فلحظ أن الكعبة المشرفة لا تتوسط المسجد بسبب صغر المساحة الواقعة بين الكعبة والرواق النبوي(٤٨). وقد تأكد من ذلك بعد أن صعد إلى جبل أبي قبيس(٤٩)، ثم دخل المسجد مرة أخرى، ولحظ الصعوبات التي تواجه الحجاج، فكانوا يسلكون الوادي خارج المسجد، ومنه إلى زقاق ضيق حتى يخرجوا إلى الصفا(٥٠)؛ فقرر إصلاح ذلك.

وقد استشار الخليفة المهدي المهندسين في إجراء التوسعة، فاستقر رأيهم على استحالة إجراء التوسعة لوقوعها في مجرى السيل، لكن المهدي أصر على التوسعة فقال: "لابد لي من سعة المسجد، حتى تكون الكعبة في وسطه، ولو أنفقت فيه ما في بيوت المال"(٥١). ولم يكن أمام المهندسين إلا الرضوخ لرغبة الخليفة المهدي، فعادوا من جديد إلى إجراء القياسات اللازمة، فرأوا أن ذلك يتطلب اقتطاع جزء من مجرى السيل من جهة المسجد مع توسعة مجرى السيل من الجهة الأخرى(٥٢). كما احتاطوا للسيل إذا زاد عن منسوبه بأن جعلوا أمام باب الهواشم (باب علي) بابا يقابله، فإذا دخل السيل من الأول خرج من الثاني، وهو باب الحزوزة (باب الوداع)(٥٣)، ووسع مجرى السيل من الجهة المقابلة بعد شراء الدور المطلة عليه(٥٤). وبعد هذه التوسعة صارت الكعبة تتوسط المسجد الحرام(٥٥).

---

(٤٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٩-٨٠، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٥٤، رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٧.

(٤٩) ابن أبي الضياء، ص١٥٣، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٣.

(٥٠) السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٥٩.

(٥١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٩.

(٥٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٨٠.

(٥٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٨٠-٨١، رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٨.

(٥٤) ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٣.

(٥٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٩، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٥٥.

ودخل بهذه التوسعة جزء كبير من المسعى في المسجد، فقد كانت منطقة المسعى في صدر الإسلام عريضة، فبنى بعض السكان دورهم في جزء من عرضها، بينها وبين المسجد، فاستعيدت تلك الأرض بشراء الدور التي عليها. وبانتهاء أعمال التوسعة أصبح المسجد مطلاً على المسعى لا تفصله البيوت(٥٦).

أنشأ المهدي للمسجد الحرام ثلاث منارات: الأولى في الجهة الشرقية الشمالية عند باب السلام، والثانية في الجهة الشرقية الجنوبية عند باب علي، والثالثة في الجهة الجنوبية الغربية عند باب الوداع(٥٧). وقد خلد الخليفة المهدي هذا العمل على أحد جدران المسجد، وأشار إلى ذلك ابن بطوطة: "وكتب اسمه على مواضع من المسجد"(٥٨). لكن الموت داهم المهدي قبل إتمام أعمال الإعمار كافة للمسجد الحرام، فتكفل ابنه الخليفة الهادي بإتمام العمل، فبنى الأساطين من الحجارة، ثم طليت بالجص، لكن عمله لم يكن بإتقان عمل والده(٥٩). وأصبحت مساحة المسجد بعد الزيادة الثانية للخليفة المهدي (٢٥٧٥٠م^{٢})(٦٠).

ولم تقتصر عمارة المهدي على التوسعة للمسجد، بل كانت هناك إضافات أخرى لمرافقه، فقد أضاف خمسة أبواب للمسجد، هي: باب دار شيبة بن عثمان، والباب الكبير الذي كان يدخل منه الخلفاء، ويعرف بباب بني شيبة الكبير، والباب الذي في دار القوارير، وباب

---

(٥٦) السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٥٩-١٦٠.

(٥٧) ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٥٩، باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٦.

(٥٨) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٣٩، وقد أزيلت هذه الكتابة عند تجديد عمارة المسجد الحرام من قبل السلطان العثماني سليم بن سليمان، وابنه مراد عام ٩٨٤هـ. باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٥.

(٥٩) الأزرقي، تاريخ مكة، ج٢، ص٨١.

(٦٠) آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي، ص٢٩.

النبي ﷺ، وباب العباس بن عبدالمطلب الذي عند العلم، الذي يسعى منه من أقبل من المروة يريد الصفا، فصار للمسجد تسعة عشرة باباً، تنفتح على ثمانية وثلاثين طاقاً(٦١).

وفي خلافة المعتمد على الله تصدعت بعض جدران المسجد من الجهة الغربية؛ لأن داراً بجوار باب إبراهيم سقطت على سطح المسجد، فتكسرت بعض أخشابه، وانهدمت أسطوانتان من أسطوانات المسجد، فصدر أمر الأمير الموفق وكان المتغلب على الخلافة عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م)(٦٢) إلى والي مكة بعمارة ما تهدم من جدران المسجد، فأعيد البناء، وأقيمت الأسطوانتان، وبنيت عقودهما(٦٣).

وظل المسجد الحرام بعد أعمال المهدي على حدوده التي وصفناها حتى نهاية العصر العباسي. ولكن كانت هناك زيادتان للمسجد دون أن تخلا بتربيعه، تمثلتا بإضافة ما تبقى من دار الندوة الواقعة في الجهة الشمالية في عهد الخليفة المعتضد(٦٤) عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)؛ حيث جعل سقفها مساوياً لسقف المسجد، وجعل فيها منارة جديدة، كما أضاف باباً للمسجد عرف

ظل المسجد الحرام بعد أعمال المهدي على حاله حتى نهاية العصر العباسي

---

(٦١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٨.

(٦٢) يقول صاحب الفخري في وصف العلاقة بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق طلحة: "وكانت دولة المعتمد عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقيادة العسكر". محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط١، بيروت: دار الصفا، ١٩٦٦م، ص٢٢٠-٢٢١.

(٦٣) باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٥٢-٥٣، وفيها نص النقش الذي خلد به هذا العمل.

(٦٤) وكان صاحب الرأي في هذه الزيادة هو أمير مكة نجح بن حاج مولى المعتضد، فقد أرسل رسائل عدة إلى وزير المعتضد عبيدالله بن سليمان في أمر الزيادة، مبيناً أن دار الندوة عظم خرابها، وأصبحت مجمعا للقاذورات حتى صارت ضررا على المسجد، فرفع الوزير الأمر إلى الخليفة، فأصدر أوامره بالزيادة. باسلامة، عمارة المسجد الحرام، ص ٥٦.

بباب الزيادة، ثم قام بصيانة عامة للمسجد ومرافقه(٦٥)، وكان مقدار الزيادة نحو (١٢٥٠م٢)(٦٦).

وبعد توليه الخلافة، أمر الخليفة المقتدر عام (٣٠٦هـ/ ٩١٨م) بوصل مسجد دار الندوة بالمسجد الحرام حتى أصبحت جزءاً منه(٦٧). كما أمر بالاستفادة من الساحة التي كانت بين دارين لزبيدة، فهدمتا، وألحقتا بالمسجد من الجهة الغربية، وعرفت هذه الزيادة بزيادة باب إبراهيم(٦٨)، وكان مقدارها (٨٥٠م٢)(٦٩).

عمارة الكعبة

كانت أول عملية تعمير وإصلاح في العصر العباسي لأرضية الكعبة وجدرانها من الداخل في عهد الخليفة المتوكل على الله سنة (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) بعد أن كتب إليه ولي عهده الأمير أبو جعفر المنتصر - وكان واليه على الحجاز - يصف حال الكعبة، وما لحق أرضيتها وجدرانها: "إني دخلت الكعبة، فرأيت الرخام المفروش به أرضها قد تكسر وصار قطعا، وأن الرخام الموجود على جدرانها قد تهدم"(٧٠). وكتب للخليفة بمثل ذلك صاحب بريد مكة(٧١).

فاستجاب الخليفة لهذه الرغبة، وأسند مهمة الإصلاح إلى أحد شيوخ الحرفة ببغداد إسحاق بن سلمة الصائغ، ووجه معه ثلاثين من الصناع الذين اختارهم بنفسه، وزوده بمئة لوح من الرخام، وما يحتاجه من الذهب والفضة(٧٢).

---

(٦٥) ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٤.

(٦٦) آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي، ص٣٥.

(٦٧) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٣٦٦، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٥.

(٦٨) باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٦٢.

(٦٩) آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي، ص٣٥. وانظر الملحق رقم (١)، ففيه توضيح لمراحل التوسعة للمسجد الحرام في العصر العباسي.

(٧٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٢٩٩.

(٧١) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٢٩٩.

(٧٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠١.

وابتدأ العمل بالإصلاح في رجب من عام (٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، فقلع الصناع الرخام المتساقط من جدران الكعبة، ووضعوا مكانه الرخام الجديد، وألصقوه بجبس صنعاني أحضر من صنعاء لهذه الغاية. كما أصلح عتبة باب الكعبة التي كانت من خشب الساج الذي تلف، فاستبدلها بقطع جديدة، ثم ألبسها بصفائح من الفضة(٧٣)، وقام إسحاق أيضاً بتلبيس زوايا الكعبة من الداخل بالذهب(٧٤).

بعد أن أعيد ترميم الكعبة عمل إسحاق على حمايتها وحماية البيت الحرام من السيول التي كثيراً ما كانت تداهمه، فعمل جداراً لحجز السيل، ثم هدم الجزء الذي تضرر من المسجد، وأعاد بناءه(٧٥)، وأصلح الطريق التي سلكها الرسول ﷺ مع عمه العباس التي يقال لها: شعب الأنصار، والتي أخذ بها الرسول البيعة من الأنصار. وكانت هذه الطريق قد اندثرت حتى زالت الجمرة من موضعها (بفعل عامة الناس)، فردها إلى موضعها، وبنى من خلفها جداراً؛ لئلا يصل إليها من أراد الرمي من أعلاها(٧٦)، وكانت تكاليف الإصلاح قد كلفت الدولة مبالغ كبيرة(٧٧).

وجُدد رخام الكعبة مرة أخرى في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله(٧٨)، كما استبدل ميزاب الكعبة بآخر جديد(٧٩).

كذلك لقي باب الكعبة عناية خاصة من قبل الخلفاء العباسيين، فاهتموا به من حيث التجديد والتحلية والتغيير. ويعد الخليفة الأمين أول خليفة عباسي قام بتحلية باب الكعبة بالذهب، فقد بعث إلى واليه

---

(٧٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٣٠٥.
(٧٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٣٠٦.
(٧٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠٣.
(٧٦) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠٣.
(٧٧) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٧٧.
(٧٨) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٢١٢.
(٧٩) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٠٤.

على مكة بثمانية عشر ألف دينار، عمل منها صفائح من ذهب وألصقها على باب الكعبة(٨٠)، وأرسل الخليفة المعتصم بالله للباب قفلا من الذهب، قدرت تكاليفه بألف دينار(٨١). وكان باب الكعبة من خشب الساج، ولحمايته أمر الخليفة المتوكل عام (٢٣٧هـ/ ٨٥١م) بتلبيس الباب بالفضة، كما جعل له غلقاً من الفضة، وعلى الباب ملبن ساج ملبس بالفضة، وعمل على الباب حلقة من الفضة بقفل من حديد(٨٢).

وجدد الخليفة المقتفي باب الكعبة سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)، فقلع الباب القديم، واتخذ باباً من العقيق(٨٣)، وصفحه بالفضة المذهبة، وطلب من أمير مكة قاسم بن فليته أن يرسل له الباب القديم، ليعمل منه تابوتاً له(٨٤).

ويعد الحجر الأسود من أهم أركان الكعبة. ولهذه الأهمية لقي اهتماماً خاصاً من قبل حكام المسلمين عبر العصور، فعلى إثر حريق أصاب الكعبة، قام عبدالله بن الزبير بربطه بالفضة، بعد أن قام بهدم الكعبة حتى انتهى إلى أساسها، ثم بناها على قواعد إبراهيم(٨٥).

---

(٨٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢١٢.

(٨١) الرشيد بن الزبير (ت٥٦٣هـ/ ١١٦٨م)، الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، الكويت، ١٩٥٩م، ص١٣٦، ضيف الله الزهراني، نفقات عمارة الكعبة المشرفة في صدر الإسلام حتى نهاية العهد العثماني، الرياض: بحوث تاريخية، الجمعية التاريخية السعودية، ط٢، ١٤١٣هـ، ص٥٤.

(٨٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٩٤.

(٨٣) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق إبراهيم صالح، ط١، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٧م، ص ٥١٩.

(٨٤) أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب، (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، وضع حواشيه محمود ديوب، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ج٢، ص ١٠٥.

(٨٥) كان ذلك بعد موقعة الحرة عام ٦٤هـ، حيث أمر يزيد بن معاوية قائده مسلم بن عقيل أن يتوجه لقتال ابن الزبير بمكة، ولكن أدركت الوفاة مسلمًا، فتولى القيادة الحصين بن نمير، الذي سار حتى وصل إلى مكة، فنصب المجانيق، ورمى الكعبة بالنفط والحجارة حتى احترقت كسوتها، وتصدعت جدرانها. الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ١٣٥.

ولكن من كثرة مس الطائفين للحجر تزعزعت الفضة من مكانها حتى خشي على الركن الأسود أن ينهار. فلما اعتمر الخليفة هارون الرشيد عام (١٨٩هـ/ ٨٠٤م) أمر بثقب الحجارة التي حول الحجر الأسود، ثم صُب سائل الفضة فيها(٨٦).

وقد تعرض الحجر الأسود للسرقة عام (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) على يد القرامطة. فبعد أن أسسوا دولتهم في بلاد البحرين، أخذت أعينهم ترنو إلى التوسع على حساب الدولة العباسية، مستغلين حالة الضعف التي وصلت إليها بعد سيطرة العناصر الأجنبية على مقاليد السلطة، فقد سار أبو طاهر القرمطي في ٧ ذي الحجة عام (٣١٧هـ/٩٢٩م) إلى مكة، لانتزاعها من عامل العباسيين، وما أن وصل إلى مكة حتى دخل الحرم، واستباحه، وقتل من فيه من الطائفين(٨٧)، وركض أبو طاهر وهو سكران شاهراً سيفه، ودخل المطاف، فبالت فرسه فيه، ثم صعد إلى باب الكعبة وهو يقول:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا(٨٨)

وفي ١٤ ذي الحجة قلع الحجر الأسود من مكانه، وذهب به إلى بلاده، وبقي موضعه خالياً يضع فيه الناس أيديهم للتبرك نحو اثنتين وعشرين سنة. ورغم ما بذله لهم بجكم التركي(٨٩) من الأموال مقابل إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، إلا أنهم رفضوا، ولم يعيدوه إلا بعد

---

(٨٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٩٧، ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص١٢٧.

(٨٧) ياقوت، معجم الأدباء، ج٣، ص١٢٢.

(٨٨) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر تدمري، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م، ج٢٣، ص٣٨١.

(٨٩) أحد القادة الأتراك، تولى إمرة الأمراء في بغداد سنة ٣٢٦هـ، قتل سنة ٣٢٩هـ. أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت٣٥٥هـ/ ٩٤٦م) أخبار الراضي بالله والمتقي لله، نشره هيورت دن، القاهرة: مطبعة الصاوي، ١٩٣٥م، ص٤١، ص١٨٤، تقي الدين الدوري، منصب إمرة الأمراء في العراق، ط١، بغداد: مطبعة أسعد، ١٩٧٥م، ص ٨٢ -٩٣.

عشرين عامًا بوساطة الشريف أبي علي بن عمر بن يحيى العلوي في خلافة المطيع لله(٩٠)، قائلين: "أخذناه بقدرة الله، ورددناه بمشيئة الله"(٩١). وقد أحضر إلى الكوفة، ثم نقل إلى مكة ليوضع مكانه في جدار الكعبة(٩٢).

وخوفا على الحجر الأسود من مثل هذا العمل، قام سدنة الكعبة سنة (٣٤٠هـ/ ٩٥١م) بقلع الحجر من موضعه، وجعلوه في جوف الكعبة. ثم أعيد إلى مكانه بعد أن صنعوا له طوقاً من الفضة، وقيل: إن قيمة ما جعلوه على الطوق من الفضة ثلاثة آلاف وتسعة وتسعين درهماً(٩٣).

ومقابل باب الكعبة مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد اهتم به الخلفاء كاهتمامهم بالبيت، وكان الخليفة المهدي أول من حلّى المقام سنة (١٦١هـ/ ٧٧٧م). روى الأزرقي عن عبدالله بن شعيب، قال: "ذهبت أرفع المقام في خلافة المهدي، فانثلم، قال: وهو حجر رخوة، فخشينا أن يتفتت، فكتبنا في ذلك إلى المهدي، فبعث إلينا بألف دينار، فضببنا فيه المقام أسفله وأعلاه"(٩٤).

وكان من جملة أعمال المتوكل العمرانية في المسجد الحرام عام (٢٣٦هـ/ ٨٤٦م) تحلية المقام بالذهب، واستبدال صفائح الرصاص التي كانت تلبس الكرسي الذي عليه المقام بالفضة، كما اتخذ له قبة من خشب الساج(٩٥).

وبعد أن قام والي مكة جعفر بن الفضل العباسي سنة (٢٥١هـ/٨٦٥م) بخلع الذهب الذي على المقام؛ ليستعين به على حرب

---

(٩٠) السيوطي، تاريخ، ص٤٥٢.

(٩١) ياقوت، معجم الأدباء، ج٣، ص١٢٢، السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٧٢.

(٩٢) ياقوت، معجم الأدباء، ج٣، ص١٢٢.

(٩٣) ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٢٧.

(٩٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٢١٣.

(٩٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣٦، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٣١.

إسماعيل(٩٦) بن حسين العلوي، أمر المتوكل سنة (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) بتحلية المقام بالذهب من جديد(٩٧).

كسوة الكعبة

حظيت كسوة الكعبة برعاية واهتمام حكام المسلمين، فقد تواترت الروايات على اهتمام الخلفاء العباسيين الذين ساروا على نهج الصحابة والخلفاء الأمويين في كسوة الكعبة، وما يشهد للخلفاء العباسيين بهذا الأمر أنهم كسوا الكعبة خلال أربع وأربعين سنة مئة وسبعين ثوباً، "إلا أنه كان يخفف عنها الشيء بعد الشيء حتى لا تثقل الكعبة، فتهدم جدرانها"(٩٨).

كانت أول إشارة إلى كسوة الكعبة في العصر العباسي تعود إلى الخليفة المهدي، حيث استغل القائمون على رعاية المسجد الحرام وجود الخليفة المهدي بمكة لأداء فريضة الحج عام (١٦٠هـ/ ٧٧٦م)، فرفعوا إليه خوفهم على جدران الكعبة من كثرة الكسوة التي عليها، وسألوه التخفيف عنها(٩٩)، فاستجاب الخليفة لرغبتهم بعد أن شاهد ذلك بعينه(١٠٠)، ثم ضمخها بالمسك والعنبر من الداخل والخارج، وأمر بكسوتها ثلاث كُسًا: قباطي وخز وديباج(١٠١). وبعد أن كانت تكسى في كل سنة كسوتين: كسوة ديباج، وكسوة قباطي، كسوة الديباج يوم التروية، وكسوة القباطي يوم السابع والعشرين من رمضان، رفع سدنة الكعبة إلى الخليفة المأمون أن الديباج يبلى قبل بلوغ عيد الفطر، فاستشار المأمون مبارك الطبري صاحب

---

(٩٦) ينتهي نسبه بالإمام علي بن أبي طالب، ثار على العباسيين عام ٢٥١هـ، وتغلب على مكة بعد أن هرب واليها جعفر بن الفضل، لكنه سرعان ما توفي بالجدري. للمزيد انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص١٨٧.

(٩٧) ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص١٣١.

(٩٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٦٣.

(٩٩) ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص١٢٠.

(١٠٠) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٣٣.

(١٠١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٤.

بريد مكة في أي الكسوة تكون الكعبة أحسن؟ فأجابه بالبياض، فأمر بكسوة جديدة من الديباج الأبيض، فصارت الكعبة تكسى ثلاث كُسًا: الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطي يوم هلال رجب، والديباج الأبيض يوم السابع والعشرين من رمضان(١٠٢).

وفي عهد المتوكل، رفع إليه سدنة الكعبة أن الإزار الأحمر يبلى قبل بلوغ هلال رجب من لمس الناس له، فأمر الخليفة بزيادة إزارين مع الإزار الأول(١٠٣).

وإبان السيطرة السلجوقية على بغداد، تولى كسوتها السلاطين السلاجقة، فقد كسا السلطان محمود بن سبكتكين الكعبة ديباجاً أصفر(١٠٤).

وبعد تخلص الخلافة العباسية من السيطرة السلجوقية، عادت الكسوة؛ لتصبح من واجبات الخليفة العباسي، فقد كساها الخليفة الناصر لدين الله (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) كسوة سوداء وأخرى خضراء(١٠٥)، يقول السيوطي نقلاً عن الفاسي: "وقد استمرت إلى الآن"(١٠٦)؛ أي: عام ٨١٢هـ.

وكان الخليفة يعهد بحمل الكسوة، وإيصالها إلى مكة إلى أحد العلماء(١٠٧)؛ ويكون خروجه مع خروج الحاج من بغداد(١٠٨)، وجرت

---

(١٠٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٦٣، أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م) تاريخ اليعقوبي، علق على حواشيه خليل منصور، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م، ج٢، ص٢٧٧.

(١٠٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٥٦.

(١٠٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٨٥.

(١٠٥) رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٨٣.

(١٠٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٣٩، الزهراني، عمارة الكعبة المشرفة، ص٤٥.

(١٠٧) ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المشهور بابن الكازروني (٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، مقامة في قواعد بغداد، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، منشورة في مجلة المورد، بغداد، المجلد ٨، العدد ٤، ١٩٧٩م، ص٢٣٦.

(١٠٨) كمال الدين عبدالرزاق بن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)، تلخيص مجمع الآداب في مجمع الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٦٢-١٩٦٥م، ج٤، ق٢، ص٨٥٥.

العادة أن ترسل مع الكسوة كل سنة آنيتان من النحاس مملوءتان بماء الورد النقي لغسيل الكعبة قبل الكسوة(١٠٩).

تحلية الكعبة

كان الخليفة أبو العباس السفاح أول من حلى الكعبة، فقد أرسل صحيفة خضراء من الزبرجد، لتعلق على باب الكعبة(١١٠). أما الخليفة المأمون فقد أرسل إلى الكعبة السرير الذي أهداه له ملك التبت بعد إسلامه(١١١). وفي عام (٢٤٥هـ/٨٥٩م) أمر الخليفة المتوكل بتحلية الكعبة بالذهب من الداخل، وبلغت قيمة التحلية ثمانية عشر مليون دينار(١١٢).

وكانت الشمسة(١١٣) من جملة الهدايا التي ترسل إلى الكعبة، ويعد الخليفة المتوكل من أكثر الخلفاء اهتماما بها، حتى قيل: إنه أول من بعث بها إلى الكعبة، فكان يبعث بها كل عام مع قافلة الحج لتعلق على بابها بعد الكسوة(١١٤).

وكان للخليفة المقتدر إسهام في تحلية الكعبة، فقد صفح أساطينها بالذهب، كما أمرت والدته السيدة شغب سنة (٣١٠هـ/ ٩٢٢م) بإلباس الإسطوانة التي تلي باب الكعبة بصفائح من الذهب من أسفلها إلى أعلاها(١١٥).

---

(١٠٩) رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٣٠٠.

(١١٠) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، الجماهر في معرفة الجواهر، بيروت: عالم الكتب، (د. ت)، ص٦٧.

(١١١) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٢٧.

(١١٢) الزهراني، نفقات عمارة الكعبة، ص٥٧.

(١١٣) الشمسة نوع من الحلية كانت تزين بها واجهة الكعبة في موسم الحج، تعلق بسلسلة من الذهب. أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠٥- ٤٨٧هـ)، الرياض: مطبعة جامعة الرياض، ١٤٠١هـ، ص١٢٥.

(١١٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٤١.

(١١٥) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص ١١٨، يوسف أحمد، المحمل والحج، القاهرة: مطبعة حجازي، ١٣٥٦هـ، ص ٢١٧.

وبعث الخليفة المطيع سنة (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م) قناديل من الفضة، وقنديلاً من الذهب، علقت في جوف الكعبة(١١٦).

إنارة المسجد الحرام ومشاعر الحج في مكة

ومن الخدمات التي حرص الخلفاء العباسيون على توفيرها في المسجد الحرام والمشاعر الإضاءة، وكانت إضاءة المسجد الحرام والمشاعر تعتمد في البدايات على الجهود الفردية لسكان مكة، من إيقاد النيران خارج مكة، أو تعليق الأسرجة على سطوح منازلهم، إلى أن كانت ولاية خالد القسري في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، فوضع مصباحاً واحداً على عمود عند بئر زمزم مقابل الركن الأسود.

استمر الوضع على ذلك إلى خلافة المأمون، فأمر واليه على مكة محمد بن سليمان سنة (٢١٦هـ/ ٨٣١م) بوضع عمود مقابل عمود زمزم بحذاء الركن الغربي. فلما ولي مكة محمد بن داود أضاف عمودين آخرين؛ أحدهما بحذاء الركن اليماني، والآخر بحذاء الركن الشامي، فأصبح المسجد الحرام يضاء من جهاته الأربع(١١٧).

أما الخليفة المعتصم، فقد كان أول من أشعل النفاطات في ليالي موسم الحج بين الصفا والمروة، يقول الأزرقي: إن الأعمدة التي وضعت عليها النفاطات أحضرت من قصر بابك الخرمي بعد القضاء على حركته(١١٨).

وفي خلافة الواثق بالله أمر بعمل عشرة أعمدة جعلت حول المطاف، وتضيء كذلك ما بين الصفا والمروة، كما علقت ثمان ثريات، اثنتان في كل جهة من واجهات المسجد الحرام(١١٩).

---

(١١٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١١٨، الزهراني، نفقات عمارة الكعبة، ص ٥٨.

(١١٧) ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص١٢٤.

(١١٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٨٧.

(١١٩) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٨٨.

عمارة المسجد النبوي بالمدينة المنورة

نال المسجد النبوي في المدينة المنورة الاهتمام نفسه الذي ناله المسجد الحرام من حيث الرعاية والإعمار في جميع مراحل التاريخ الإسلامي.

كان الخليفة أبو جعفر المنصور قد عزم على توسعة المسجد النبوي، لكنه توفي قبل أن ينفذ ما عزم عليه، ولكن كان له إسهام في إعماره، فقد أمر والي المدينة الحسن بن زيد بن علي بتجديد رخام جدران المسجد سنة (١٥١هـ/ ٧٦٧م)(١٢٠). وفي خلافة هارون الرشيد أجريت إصلاحات في سقف المسجد من جهة قبر الرسول ﷺ عام (١٩٣هـ/ ٨٠٩م)(١٢١).

ولم تحدث زيادات للمسجد النبوي إلا في عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م)؛ وذلك أنه عندما حج المهدي عام (١٦٠هـ/ ٧٧٧م)، رأى الزحام في المسجد، فقرر التوسعة بعد أن استشار زعماء أهل المدينة. ولأجل هذه الغاية استعمل على المدينة جعفر بن محمد بن سليمان العباسي، وأوكل إليه مهمة الإشراف على الزيادة، ومعه كل من عبدالله بن عاصم بن عمر بن عبدالعزيز وعبدالملك بن شبيب الغساني(١٢٢)، وأوصاهما بأن تبدأ عمليات التوسعة والبناء بعد رحيل الحجاج عن المدينة، على أن يرسل لهم

---

(١٢٠) علي بن عبدالله بن أحمد السمهودي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد الأمين الجكني، ط١، المدينة المنورة: (د. ن)، ١٤١٨هـ، ج١، ص٣٤٤.

(١٢١) السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص٥٦٠.

(١٢٢) محمد بن محمود بن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، الدرة الثمينة في أخبار المدينة، عني بنشره حسن محمود شكري، الرياض: دار المدينة المنورة للطباعة، ١٤١٨هـ، ص١٠٤. ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص٢٨٤. ويشير اليعقوبي إلى أن أحد الأسباب التي كانت وراء أعمال العمران للمسجد الحرام هي الزلازل التي هدمت بعض أجزائه. اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، تحقيق محمد كمال الدين، ط١، عالم الكتب، القاهرة، (د. ت)، ص٣٥.

الأموال اللازمة للبناء إذا عاد إلى بغداد. ثم توفي عبدالله بن عاصم أحد المكلفين بالعمارة، فكتب جعفر بن محمد بن سليمان إلى الخليفة بذلك، فأرسل عوضاً عنه عبدالله بن موسى الحمصي(١٢٣).

قام المكلفون بالعمارة بتحديد الدور المراد هدمها بغرض إدخالها في التوسعة، ومن تلك الدور دار مليكة، ودار شرحبيل بن حسنة، وبقية دار عبدالله بن مسعود، ودار المسور بن مخرمة الزهري، التي تم تثمينها وشراؤها من أصحابها، ثم هدمها(١٢٤). وجاءت الزيادة في الجهة الشمالية من المسجد فقط، وكانت الزيادة بحدود (٢٤٥٠م٢)، فأصبحت المساحة الكلية للمسجد (٨٨٩٠م٢)(١٢٥). وقد انتهت أعمال العمارة في سنة (١٦٥هـ/ ٧٨٣م)(١٢٦).

وأجريت في عهد الخليفة المأمون عملية إصلاح وترميم عامة للمسجد النبوي(١٢٧). وفي عام (٢٤٦هـ/ ٨٦٠م) أمر الخليفة المتوكل على الله بترميم بعض الجدران التي ظهر عليها التلف، كما أعيدت كسوة عقود الأعمدة بالفسيفساء، وتبليط أرض الأروقة من جديد بالرخام الأبيض، وإنشاء حزام من الرخام على الجدران من الداخل بارتفاع قامة الإنسان، وقد أشرف على هذا العمل إسحاق بن سلمة(١٢٨). وقام الخليفة المقتفي عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) بإرسال

---

(١٢٣) عبدالباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المدينة المنورة، ١٩٩٣م، ج٢، ص٦٥.

(١٢٤) ابن النجار، أخبار المدينة، ص١٠٤، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص٢٨٤.

(١٢٥) انظر تفاصيل ذلك: صالح لمعي، المدينة المنورة، تطورها العمراني وتراثها المعماري، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م، ص٧٥ -٧٩، الوكيل محمد السيد، المسجد النبوي عبر التاريخ، ط١، جدة: دار المجتمع للنشر، ١٤٠٩هـ، ص٧١، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٧٤ -٢٧٥.

(١٢٦) ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص٢٨٤.

(١٢٧) لمعي، المدينة المنورة، ص٧٨.

(١٢٨) ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص ٣٢٩، السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص٥٠٥-٥١١، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٧٨.

الأموال إلى والي المدينة القاسم بن مهنا الحسيني، وذلك لتجديد الوزرة الخارجية لجدار قبر الرسول ﷺ(١٢٩).

ولم يشهد المسجد النبوي عمارة بعد ذلك حتى خلافة الناصر لدين الله (٥٧٥ -٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٥٥م)، حيث أمر بعمل قبة في وسط الصحن، لحفظ ذخائر المسجد، مثل: مصحف عثمان عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)(١٣٠). كذلك جدد الحائط الشرقي من المئذنة الشمالية الشرقية سنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)(١٣١)، وجدد المنبر الأموي في سنة (٥٩٣هـ/ ١١٩٦م)(١٣٢). كما أن الخلفاء العباسيين كانوا يرسلون باستمرار القناديل وزيوتها والشموع لإنارة المسجد النبوي، والطرقات المحيطة به، وينفق عليها من بيت مال المسلمين(١٣٣).

ونلحظ استمرار الإصلاحات والتعمير في المسجد النبوي طوال العصر العباسي، ولم تظهر الحاجة لإعادة البناء أو التوسعة إلا بعد أن احترق سقف المسجد النبوي بكامله، وتلف المنبر والأبواب والخزائن والشبابيك، ولم يسلم من الحريق إلا الحجرة النبوية والقبة التي في وسط الصحن، وكان ذلك أول شهر رمضان من سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٤م). وسبب ذلك أن أحد فراشي المسجد النبوي دخل إلى مخزن المسجد، وكان بيده مصباح موقد، فوضعه فوق أحد الأقفاص، وكان به بعض الأقمشة، فاشتعلت النار بالقفص، وانتقلت بسرعة إلى جميع نواحي المسجد، وعلقت بالسقف والحصر والبسط، فاجتمع الناس، وحاولوا إطفاء النار، فلم يستطيعوا إلا إبعاد النار عن الحجرة الشريفة(١٣٤).

---

(١٢٩) السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص ٥٧٠ - ٥٧٥، لمعي، المدينة المنورة، ص٧٨.

(١٣٠) لمعي، المدينة المنورة، ص ٧٨.

(١٣١) السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص٦٠٠ - ٦٠٣.

(١٣٢) السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص٤٠٥. وانظر الملحق رقم (٢)، ففيه توضيح لمراحل التوسعة للمسجد النبوي في العصر العباسي.

(١٣٣) ابن النجار، أخبار المدينة، ص١٠٩، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٧٩.

(١٣٤) ابن النجار، أخبار المدينة، ص١٠٩ -١١٠، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٧٩.

ولما علم الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ -٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) أرسل في العام نفسه الصناع والمؤن مع ركب الحاج العراقي، وابتدأ في العمارة في سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، وقد أخذ العمال في إعادة بناء المسجد النبوي من جديد، إلا أن العمارة توقفت بنهاية الدولة العباسية في بغداد باستيلاء المغول عليها عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، غير أنه في هذه الفترة عمل سقف الحجرة النبوية وما حولها إلى الحائط الشرقي إلى باب جبريل، ومن الجنوب إلى حائط القبلة، ومن الغرب إلى المنبر(١٣٥).

وبعد ذلك أصبح إكمال البناء من واجبات السلطان المملوكي في مصر(١٣٦).

توفير المياه في المشاعر المقدسة

اهتم الخلفاء العباسيون بتوفير المياه في مكة لأجل سكانها من جهة، وللحجاج القادمين من شتى أرجاء المعمورة من جهة أخرى، وذلك من خلال المحافظة على ما كان متوفراً من المصادر وصيانتها، وتجهيز مصادر جديدة من آبار وعيون.

كانت بئر زمزم على رأس المشاريع المائية التي حرص الخلفاء على صيانتها وترميم آبارها، لأهميتها الدينية(١٣٧)، ولوجودها في المسجد الحرام(١٣٨).

---

(١٣٥) السمهودي، خلاصة الوفاء، ص٣١٧-٣١٨، لمعي، المدينة المنورة، ص٧٩، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٨٠.

(١٣٦) انظر تفاصيل ذلك: لمعي، المدينة المنورة، ص٧٩، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٨١ -٢٨٣.

(١٣٧) ذكر ابن ماجه في سننه عن رسول الله ﷺ: "ماء زمزم لما شرب له، إن شربته لتستشفي به شفاك الله، وإن شربته يشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ضمئك قطعه الله، وهي هزمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل". سنن ابن ماجه، بإشراف صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام، دار الفيحاء، ١٤٢٠هـ، ص٤٤٢، حديث رقم ٣٠٦٢.

(١٣٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٥٥.

وكان الخليفة أبو العباس السفاح أول من اهتم ببئر زمزم، فلأجل رعايته أمر ببناء حجرة قريبة من البئر تكون مقراً لمن يتولى السقاية والإشراف على الماء(١٣٩). وقام الخليفة المنصور بفرش الأرضية بالرخام، وبنى قبة على البئر، وكانت قبل ذلك مكشوفة(١٤٠)، وقد جددت القبة في عهد الخليفة المهدي(١٤١).

وحرص الخليفة هارون الرشيد أثناء تأديته فريضة الحج عام (١٧٣هـ/ ٧٨٩م) على توفير المياه للحجاج، فأمر بزيادة عدد أحواض المياه داخل المسجد الحرام، وخصص خمسين غلاماً من الخرسانيين لسقاية الحجاج بالقرب والروايا المجلوبة من ماء زمزم(١٤٢). وفي عام (٢٢٠هـ/ ٨٣٥م) أوعز الخليفة المعتصم لواليه على مكة عمر بن فرج الرخجي بعمارة بئر زمزم، فسقف زمزم كلها بالساج المذهب من الداخل، كما علق بها قناديل للإضاءة، وعمل لها باباً من حديد(١٤٣).

وقد أشار الأزرقي إلى أن بئر زمزم في عام (٢٢٣هـ/ ٨٣٧م) قل ماؤه "حتى كادت أن تجم"، فتم الحفر فيها بعمق تسعة أذرع، ثم جاءت الأمطار في العام التالي، فتدفقت من جديد(١٤٤).

أما الخليفة المتوكل، فقد أمر ببناء مظلة المؤذنين الواقعة فوق زمزم، وأصلح البرك المتصدعة داخل الحرم(١٤٥). كما جدد تلك البرك الخليفة المهتدي عام (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، وأعاد ترميم الباب الذي صنعه المعتصم(١٤٦).

---

(١٣٩) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٠٧.

(١٤٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٠٢.

(١٤١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٠٢.

(١٤٢) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٦٧.

(١٤٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج، ص١٠٢.

(١٤٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٦١، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٤٢.

(١٤٥) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٧٠.

(١٤٦) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٧٣.

ولم تقتصر جهود الخلفاء على بئر زمزم، بل اهتموا بمختلف مصادر المياه من آبار وعيون، فقد قام الخليفة الرشيد بتجديد العيون التي طمرت، وأجرى مياهها في عين واحدة عرفت بعين الرشا(١٤٧)، وأمر بتجهيز البرك في أعلى مكة وأسفلها، لتصب فيها مياه العين(١٤٨).

مع مرور الأيام، لم تعد عين الرشا قادرة على توفير المياه لأهل مكة حتى جفت عام (١٩٣هـ/ ٨٠٨م) وكان لجفافها أثر عظيم، مما دفع أهل مكة للخروج إلى الآبار وجلب الماء، لبيعها للحجاج بأسعار باهظة "حتى بيعت الروية بعشرة دراهم"(١٤٩).

وصادف في هذا العام أداء السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد فريضة الحج، ورأت ما يعانيه الحجاج من أجل الحصول على الماء، فأمرت بجر الماء إلى مكة، وكلفت بعض المهندسين بهذه المهمة، الذين وجدوا أن أفضل وسيلة لتوفير الماء هو جرها من عين حنين، فاشترت الأرض المحيطة بالعين، وبنت قنوات لتنقل بها المياه إلى أطراف مكة(١٥٠). وأصلحت البرك الموجودة في مكة، وبنت عدداً من البرك على طول مجرى القناة حتى وصلت المياه إلى الحرم(١٥١). وكانت نفقات السيدة زبيدة على هذه الأعمال عظيمة، "وأنفقت في ذلك من الأموال ما لم يكن تطيب به نفس كثير من الناس"(١٥٢). وبعد انتهاء أعمال البناء، حضر المتولون إلى قصر السيدة زبيدة لعرض تفاصيل الحساب، فأمرت بإلقاء الدفاتر بنهر دجلة، وقالت: "تركنا الحساب ليوم الحساب، فمن بقي

من بقي عنده من المال شيء فهو له، ومن بقي له عندنا شيء أعطيناه

---

(١٤٧) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٠.

(١٤٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣١.

(١٤٩) الفاكهي، المنتقى في أخبار أم القرى، بيروت، ١٩٦٧م، ص٦٠.

(١٥٠) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٣٧.

(١٥١) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٣٧.

(١٥٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣١.

عنده من المال شيء فهو له، ومن بقي له عندنا شيء أعطيناه"(١٥٣). ولأجل استمرارية أعمالها الخيرية في الحرمين قامت بتخصيص الأوقاف اللازمة للإنفاق عليها(١٥٤).

ويبدو أن المياه لم تصل إلى جميع أحياء مكة، فقد رفع صالح بن العباس إلى الخليفة المأمون عام (٢١٠هـ/ ٨٢٥م) شكوى أهل السوق، وبعض الأحياء، والمتمثلة بعدم وصول ماء عين حنين إلى أحيائهم، فأمره الخليفة بعمل بازانات(١٥٥) تغذى من العين مباشرة، فأنشأ خمس برك: جعل الأولى عند شعب ابن يوسف، والثانية عند الصفا، والثالثة عند سوق الخياطين، والرابعة عند سوق الحطب، والخامسة عند ماجل أبي صلابة(١٥٦). وقد أزعج هذا العمل السيدة زبيدة، ووجهت اللوم إلى صالح بن العباس بقولها: "إنما قمت به من عمل ما أريد ألا أن أكمله"، فقدم صالح اعتذاره قائلاً: "إنما قمت به من عمل ما هو إلا إكمالاً لعملك الخيري"(١٥٧).

وقد استمرت عين حنين في التدفق والجريان، لكنها كانت بحاجة دائمة للإصلاح والترميم، ففي عام (٢٥٢هـ/ ٨٦٦م) أرسل الخليفة المعتز إلى والي مكة الأموال اللازمة لإصلاح ما تهدم من العين وقنواتها(١٥٨). ولحمايتها نجد الخليفة المعتمد على الله بعد قيامه عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م) ببعض الإصلاحات يتخذ ثلاثمئة من الحراس يحرسونها ليلاً ونهاراً(١٥٩).

---

(١٥٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٧٧، رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢١٤.

(١٥٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٧٧.

(١٥٥) لفظ أعجمي معرب، عبارة عن برك لحفظ المياه في الموسم. محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م)، القاموس المحيط، ط١، بيروت: دار التراث العربي، ١٩٩٧م، ج٢، ص ١٥٥١.

(١٥٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٢١٠.

(١٥٧) أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت)، ج٢، ص١٨٢.

(١٥٨) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص١٩٧.

(١٥٩) رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢١٢.

ولم تقتصر جهود الخلفاء على توفير المياه في مكة والمسجد الحرام، بل شملت جهودهم بتوفيرها في المشاعر؛ لذا قام الخلفاء العباسيون الأوائل بتخصيص عدد من الغلمان لجلب المياه بالقِرب من خارج مكة إلى المشاعر(١٦٠)، كما اهتموا بإصلاح الآبار الموجودة فيها، فقد أمر أبو جعفر المنصور عام (١٣٨هـ/ ٧٥٥م) بإصلاح بئر الياقوتة(١٦١)، كما أمر المهدي عام (١٥٩هـ/ ٧٧٥م) بإصلاح بئر السقيا، وأوكل هذه المهمة إلى مولاه خالص؛ لذا اصطلح على تسمية البئر ببئر خالصة(١٦٢).

وكان من جملة أعمال السيدة زبيدة في مكة، جر مياه عين النعمان إلى عرفة(١٦٣)، وإنشاء صهاريج تجتمع فيها مياه الأمطار في مزدلفة(١٦٤).

وفي عهد السيطرة السلجوقية على الخلافة ببغداد عمرت عين النعمان على يد الوزير أبي نصر الأستراباذي عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م)(١٦٥).

كما نشر إبراهيم رفعت أربعة نقوش أثرية كانت موجودة في زمانه على أربع لوحات رخامية أسفل جبل الرحمة بعرفة، ثلاثة تشير إلى إصلاح عين النعمان في عهد الخليفة الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م). والإصلاح الرابع في عهد الخليفة المستنصر بالله، حيث عمرها ثلاث مرات في أعوام: (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨)، (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م)، (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م)(١٦٦).

---

(١٦٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٠٧.

(١٦١) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٩٠.

(١٦٢) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٢٠٧.

(١٦٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٤٦.

(١٦٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٨٧.

(١٦٥) الفاسي، العقد الثمين، ج٣، ص١٦٧.

(١٦٦) رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢١٤- ٢١٥.

وإذا أنهى الحجاج أداء مناسك الحج في مكة، توجهوا إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد الرسول ﷺ والسلام عليه، ونظراً لطول المسافة؛ حرص الخلفاء على الاهتمام بالطريق وإصلاحها، وتوفير المياه للحجاج. فبعد عام من توليه الخلافة، أمر أبو العباس السفاح واليه على مكة بإصلاح الآبار الموجودة واستحداث أخرى، كما أمره بوضع علامات على الطريق ليسترشد بها الحجاج(١٦٧). وأضاف الخليفة المنصور بركتين؛ الأولى: في عسفان، والأخرى: في بدر(١٦٨). وأنشأت السيدة زبيدة صهاريج للمياه في منطقة الحاجر قبل المدينة المنورة(١٦٩).

وكانت إصلاحات الخليفة المهدي إضافة نوعية على طريق الحاج بين مكة والمدينة، حيث أمر بإضاءة الطريق بالشموع، كما أمر صاحب البريد ببناء محطات للبريد على طول الطريق، حتى يكون على علم بأحوال الحجاج طوال رحلتهم بين المدينتين(١٧٠). وفي العام التالي أمر بزيادة عدد البرك في تلك الطريق(١٧١).

أما في المدينة فلم ترد في مصادرنا إشارات إلى وجود مشكلة في توفير المياه، ويعود ذلك إلى طبيعة موقعها، حيث تكثر بها العيون والآبار(١٧٢). كما أنها لم تتعرض للسيول كمكة التي كانت تطمر عيونها وآبارها.

---

(١٦٧) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٢٤٥.

(١٦٨) مالكي، مرافق الحج، ص١٢٦.

(١٦٩) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٣٧.

(١٧٠) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٧٤.

(١٧١) السيوطي، تاريخ، ص٣٢٤.

(١٧٢) تخترق منطقة المدينة أودية عدة، من أهمها وادي بطحان، ووادي القطيعة، ثم يلتقيان بوادي قناة الماء، وكان لتعدد هذه الأودية آثاره في غزارة المياه. اليعقوبي، البلدان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م، ص٧٦، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، ط١، القاهرة: دار الفكر، ١٩٦٥م، ص ٢٨٧ - ٢٨٩.

وقد توافرت المياه في المدينة من خلال الآبار الموجودة في الأحياء والبيوت، إضافة إلى العيون التي من أشهرها: عين الحيف الواقعة شمال المدينة. لكن الاستفادة منها كانت مقصورة على حجاج الركب الشامي(١٧٣). وتشير المصادر إلى أن هذه العين تم إصلاحها في عهد الخليفة المنصور عام (١٤١هـ/ ٧٥٨م)(١٧٤)، ثم في عهد الخليفة هارون الرشيد(١٧٥).

وكانت عين الزرقاء الواقعة جنوب غرب المدينة هي العين الرئيسة؛ لإيصال المياه إلى أحياء المدينة المنورة، إذ تتجمع مياهها في ثلاثة بازانات داخل المدينة(١٧٦). وفي عهد المنصور، أمر بزيادة البازانات في شمال المدينة وغربها، وأوصلها بقناة عين الزرقاء(١٧٧). وعندما علم الخليفة المأمون عام (٢١٠هـ/ ٨٢٥م) بالخراب الذي حل ببعض قنواتها، أصدر أوامره إلى والي المدينة بإصلاحها، وإعادتها إلى ما كانت عليه(١٧٨).

---

(١٧٣) عبدالقدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة، ط٣، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٣٩٣هـ، ص١٠٢.

(١٧٤) الأنصاري، آثار المدينة، ص١٠٣.

(١٧٥) الأنصاري، آثار المدينة، ص١٠٤.

(١٧٦) زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغي، تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، صححه وعلق عليه محمد عبدالجواد الأصمعي، ط١، المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٧٤هـ، ص ١٣٥.

(١٧٧) الأنصاري، آثار المدينة، ص٢٦٢.

(١٧٨) الأنصاري، آثار المدينة، ص ٢٦٢.

الخاتمة

بعد دراسة جهود الخلافة العباسية في رعاية الحرمين ومشاعر الحج في الحجاز يمكن استنتاج ما يأتي:

١ - لم تكن جهود الخلافة العباسية في عمارة الحرمين الشريفين ومشاعر الحج منتظمة، بل اعتمدت على الجهد الفردي لبعض خلفاء وأمراء البيت العباسي. كما أنه لم يكن هناك ديوان خاص يتولى مهمة الإشراف على رعاية المشاعر المقدسة في الحجاز.

٢ - ارتبطت عمليات الإعمار والبناء بالحالة السياسية للدولة العباسية، فلما تراجعت قوتها برزت مطامع الدويلات المستقلة، وخاصة الدولة الفاطمية، التي أخذت تزاحمها في السيطرة على الحجاز؛ لما لها من مكانة في نفوس المسلمين.

٣ - ازداد تمسك خلفاء الدولة العباسية بعمارة الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة بعد أن اتضحت لهم أهمية تلك السيطرة الدينية على الحجاز في نفوس رعاياهم من المسلمين، فالحجاز مهبط الوحي والمركز الروحي لعامة المسلمين، ولا يجوز لحكامهم التخلي عن تلك السيطرة؛ لأن ذلك ينقص من عناصر سيادتهم. لذا نجد أن الخلفاء العباسيين ظلوا متمسكين بالحجاز وإدارتها - رغم انقطاع تلك السيطرة فترة من الزمن - حتى لو كانت تلك السيطرة اسمية، طالما أن اسم الخليفة يذكر على منابر الحرمين.

٤ - إن أمراء الحجاز من الأشراف لم يكن لهم ذلك الدور الواضح في عمليات الإعمار للمشاعر المقدسة في بلادهم، معتمدين في ذلك على التنافس العباسي - الفاطمي، وما يقوم به الطرفان من أعمال الإعمار، مكتفين بما يقدمونه لهم من أعطيات وهبات، مُؤثرين مصالحهم الخاصة على مصالح البلاد.

الملاحق

ملحق رقم (١)

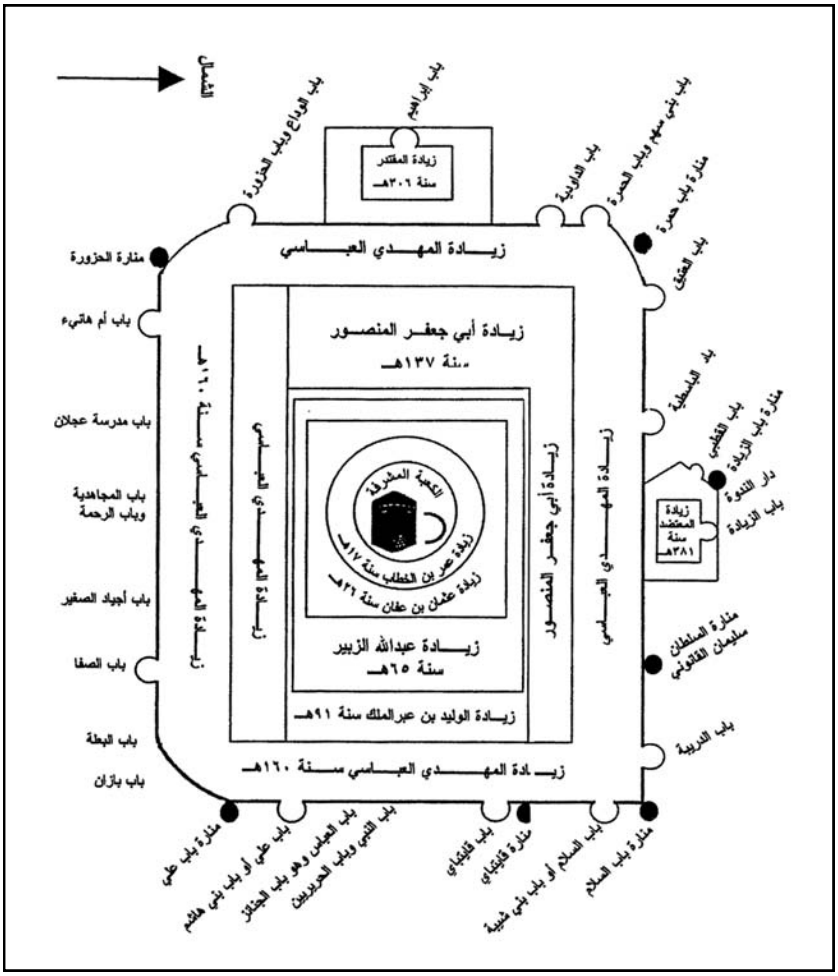
الشمال
باب الوداع وباب الحزورة
باب إبراهيم
زيادة المقتدر
سنة ٣٠٦هـ
باب الداودية
باب بني سهم وباب الحصرة
منارة باب حصرة
باب العتيق
منارة الحزورة
زيادة المهدي العباسي
باب أم هانيء
زيادة أبي جعفر المنصور
سنة ١٣٧هـ
باب الباسطية
باب القطبي
منارة باب الزيادة
دار الندوة
باب الزيادة
زيادة المعتضد سنة ٢٨١هـ
باب مدرسة عجلان
باب المجاهدية وباب الرحمة
زيادة المهدي العباسي سنة ١٦٠هـ
زيادة المهدي العباسي
زيادة أبي جعفر المنصور
زيادة المهدي العباسي
الكعبة المشرفة
زيادة عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ
زيادة عثمان بن عفان سنة ٢٦هـ
باب أجياد الصغير
زيادة عبدالله الزبير
سنة ٦٥هـ
منارة السلطان سليمان القانوني
باب الصفا
زيادة الوليد بن عبرالملك سنة ٩١هـ
باب الدريبة
باب البغلة
زيادة المهدي العباسي سنة ١٦٠هـ
باب بازان
منارة باب علي
باب علي أو باب بني هاشم
باب العباس وهو باب الجنائز
باب النبي وباب الحريريين
باب قايتباي
منارة قايتباي
باب السلام أو باب بني شيبة
منارة باب السلام

الزيادات التي طالت الحرم خلال العصر العباسي

نقلاً عن : عبداللطيف بن دهيش: عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي

ملحق رقم (٢)

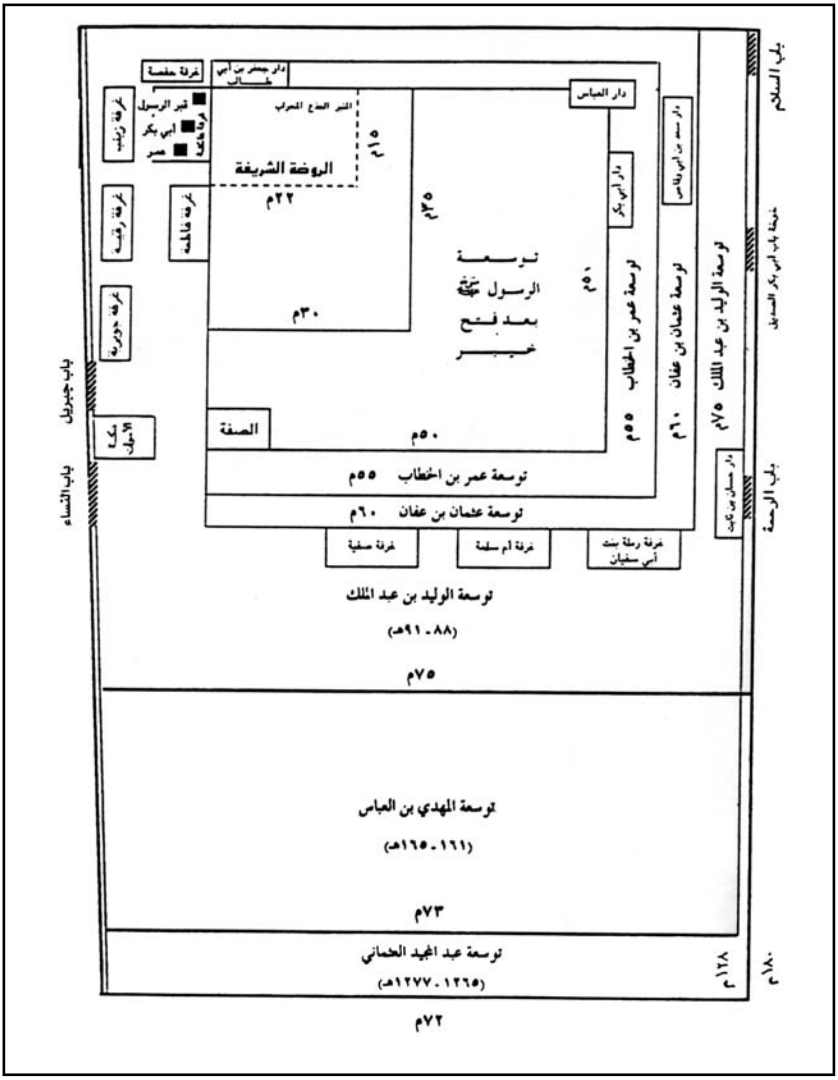
غرفة حفصة
دار جعفر بن أبي طالب
دار العباس
دار سعد بن أبي وقاص
باب السلام
غرفة زينب
قبر الرسول
أبي بكر
عمر
غرفة عائشة
المنبر الجذع المحراب
١٥م
الروضة الشريفة
٢٢م
غرفة فاطمة
غرفة رقية
٣٥م
دار أبي بكر
خوخة باب أبي بكر الصديق
توسعة الرسول ﷺ بعد فتح خيبر
٥٠م
توسعة عمر بن الخطاب
توسعة عثمان بن عفان
توسعة الوليد بن عبد الملك
٣٠م
غرفة دورية
باب جبريل
الصفة
٥٠م
٥٥م
٦٠م
٧٥م
بكة الأولى
باب النساء
دار حسان بن ثابت
باب الرحمة
توسعة عمر بن الخطاب ٥٥م
توسعة عثمان بن عفان ٦٠م
غرفة صفية
غرفة أم سلمة
غرفة رملة بنت أبي سفيان
توسعة الوليد بن عبد الملك
(٨٨-٩١هـ)
٧٥م
توسعة المهدي بن العباس
(١٦١-١٦٥هـ)
٧٣م
توسعة عبد المجيد العثماني
(١٢٦٥-١٢٧٧هـ)
١٢٨م
١٨٠م
٧٢م

مراحل توسعة المسجد النبوي حتى نهاية العصر العباسي

نقلاً عن : عبداللطيف بن دهيش: عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي